Journal of Alasmarya University
Volume 10, December 2008

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد العاشر، ديسمبر 2008

أين الله؟
دراسة لحديث (الجارية) سنداً ومتناً

د. صهيب محمود السقار*

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، لا تدركه الأبصار ولا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام ولا يشبه الأنام. تعالى رب السماوات السبع ورب العرش الكريم. وسبحان ربنا رب العزة عما يصفون.

وبعد فقد منّ الخالق على البشرية بالوجود، وكرمهم على كثير ممن خلق، وتفضل عليهم بتسخير السماوات والأرض، ثم فطر طبائعهم على حب معرفة المنعم، وحجب أبصارهم عن إدراكه، وحذر عقولهم من التطاول والتفكر بذاته. وقطع أمل الأبصار بإدراكه وألجم العقول بأدلة تنزيهه. وتفرق الخلق بعد ذلك على أربعة مراتب: منهم من أعرض عن هدي الله واستجاب لدواعي الحس فعبد إله نحته بيديه على الصورة التي تشوفت لها حواسه. ومنهم من استنوق في إخلاده إلى الحس فاختار من نجوم السماء وكواكبها صنما سماويا مستنكفا من عبادة صنم أرضي نحته بيديه.

وليس بأسعد منهم حالا من اطلع فرأى الوثنين في سواء الجحيم أخلدوا إلى الحس فخروا من سماء التوحيد إلى وديان الشرك. لم يكن أسعد منهم لما تفلت استمساكه بعروة التنزيه الوثقى وتعلق منها بالحشو فخر من السماء واختطفه طير التشبيه. وهذا حال من اتبع ما تشابه من نصوص الكتاب والسنة. لما عرض عليه تنزيه الباري عن التمكن في مكان أعرض عن جملة ما دل على التنزيه من أدلة العقل والنقل. وعمد إلى حديث الجارية من بين جملة نصوص الوحيين فانتزعه واختطفه وحيدا بعيدا

* جامعة قاريونس.

عن ساحات الدلالات المعتبرة العلمية الموضوعية ليتعسف في انتزاع دلالته على الموهوم المطلوب. ثم تكلف في لوي أعناق باقي النصوص لتطاوع هذا الفهم أو الوهم.

وقد بلغ الأمر غايته لما صار هذا الفهم معيارا وفرقانا فيما يسمونه جرحا وتعديلا. بل فيما يسمونه إيمانا وإلحادا. فاستشرفت همم المشفقين إلى النصح لهذه الأمة لما أعلنوا الرضوخ لأدلة التنزيه وكفوا العقل عن التفكر بالخالق سبحانه، واستعانوا في كبح جماحه برجاء الظفر بالحسنى وزيادة. فردوا الشبهة سندا ومتنا بما يتعين الكشف عنه في هذا العصر.

أولا: الكلام على أسانيد حديث (الجارية)

جاء لفظ: «أين الله» في حديث الجارية من رواية هلال بن أبي ميمونة عن عطاء، فأخرج الإمام مسلم بسنده عن هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسارعن معاوية بن الحكم السلمي ﷺ: «قال بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمِّتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما قال رسول الله ﷺ، قلت يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالاً يأتون الكهان قال فلا تأتهم قال ومنا رجال يتطيرون قال ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم قال ابن الصباح فلا يصدنكم قال قلت ومنا رجال يخطون قال كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك.

قال وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبل أحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بنى آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي قلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال ائتني بها فأتيته بها فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة»(1)

1- صحيح مسلم1 /381 (537) باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته. والحديث من طريق هلال في مسند الطيالسي1 /150 (1105) ومصنف ابن أبي شيبة 6 /162 (30342)،=

هذه رواية هلال بن أبي ميمونة عن عطاء عن معاوية السلمي ﷺ. وقد خالفه في روايته عن عطاء سعيد بن زيد وابن جريج.

من خالف هلالا في روايته عن عطاء

أولا: خالف سعيد بن زيد[2] عن توبة العنبري[3] هلالاً[4] في روايته عن عطاء بن يسار قال: «حدثني صاحب الجارية نفسه قال كانت لي جارية ترعى ... الحديث، وفيه فمد النبي يده إليها وأشار إليها مستفهماً من في السماء؟ قالت الله. قال فمن أنا؟ قالت: أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مسلمة»[5].

ثانيا: خالفه أيضاً ابن جريج[6] أخرجه عبد الرزاق عن ابن جريج قال: «أخبرني عطاء أن رجلاً كانت له جارية في غنم ترعاها وكانت شاة صفي، يعني غزيرة في غنمه تلك، فأراد أن يعطيها نبيَ الله ﷺ فجاء السبع فانتزع ضرعها فغضب الرجل فصكَّ وجهَ جاريته فجاء نبيَ الله ﷺ فذكر ذلك له وذكر أنه كانت عليه رقبة مؤمنة وافية قد همَّ أن يجعلها إياها حين صكها فقال له النبي ﷺ ايتني بها فسألها النبي ﷺ أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت: نعم وأن محمدا عبد الله ورسوله؟ قالت: نعم. وأن الموت والبعث حق؟

=ومسند أحمد 5 /447 (23813) و5 /448 (23816) وسنن أبي داود1 /244 (930) (931) والرد على الجهمية لعثمان الدارمي1 /46 (61) ونقض عثمان بن سعيد1 /491 والسنة لابن أبي عاصم1 /215 (488) و(490) والسنن الكبرى للنسائي1 /362 (1141) والمنتقى لابن الجارود1 /63 (212) والتوحيد لابن خزيمة 81 وصحيح ابن حبان1 /383 (165) والإيمان لابن مندة 1 /230 (26) واعتقاد أهل السنة3 /392 (652) وسنن البيهقي الكبرى7 /387 (15043) والأسماء والصفات له أيضاً 422 والمعجم الكبير للطبراني 19 /398 (937)

2- سعيد بن زيد بن درهم الأزدي 167هـ وهو صدوق له أوهام انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 4 /33.

3- توبة العنبري هو توبة بن أبي الأسد: كيسان بن راشد وهو ثقة انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 1 /515.

4- قال المزي في ترجمته في تهذيب الكمال 30 /344: «هلال بن على بن أسامة، ويقال: هلال بن أبي ميمونة ... قال أبو حاتم: شيخ يكتب حديثه.وقال النسائي: ليس به بأس».

5- انظر العلو للعلي الغفار 120 بتحقيق السقاف وقد أشار إلى حذف سندها في النسخ التي حققها غيره انظر العلو1 /15 بتحقيق أشرف بن عبد المقصود. ومختصر العلو للألباني 80. وذكرها المزي في تحفة الأشراف 8 /427

6- هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أحد الأعلام انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 6 /405.

قالت نعم. وأن الجنة والنار حق؟ قالت نعم فلما فرغ قال أعتق أو أمسك»[7].

وللفظ سعيد بن زيد ولفظ ابن جريج شواهد صحيحة

الروايات التي تشهد لمن خالف هلالا في روايته

أولا: أخرج الإمام مالك عن ابن شهاب الزهري[8] عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود[9]: «أن رجلاً من الأنصار جاء إلى رسول الله ﷺ بجارية له سوداء فقال: يا رسول الله إن علي رقبة مؤمنة، فإن كنت تراها مؤمنة أعتقها. فقال لها رسول الله ﷺ أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت نعم. قال أتشهدين أن محمدا رسول الله؟ قالت نعم. قال أتوقنين بالبعث بعد الموت؟ قالت نعم. فقال رسول الله ﷺ أعتقها»[10].

ثانيا: وأخرج ابن حبان في صحيحه بسنده عن حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن الشريد بن سويد الثقفي قال: قلت: «يا رسول الله إن أمي أوصت أن نعتق عنها رقبة وعندي جارية سوداء قال ادع بها فجاءت، فقال: من ربك؟ قالت الله. قال: من أنا؟ قالت: رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة»[11]

مناقشة الشواهد التي أريد بها تقوية رواية (أين ا)

ساق من احتج برواية هلال مجموعة من الشواهد أراد بها تقوية روايته التي نقل فيها السؤال بـ (أين الله). ونكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى أن الحافظ الذهبي ساق هذه

7- مصنف عبد الرزاق 9 /175

8- هو محمد بن مسلم (ابن شهاب الزهري) أحد الأعلام انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 9 /450.

9- أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ثقة فقيه ثبت انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 7 /24.

10- الموطأ 2 /777 (1469) وهو في مصنف عبد الرزاق 9 /175ومسند أحمد 3 /451 والمنتقى لابن الجارود 1 /234 (931) والتوحيد لابن خزيمة 122وسنن البيهقي الكبرى7 /388 (15046) وقال الذهبي في العلو 15هذا حديث صحيح أخرجه ابن خزيمة في التوحيد. وقال ابن كثير في تفسيره1 /535: «وهذا إسناد صحيح وجهالة الصحابي لا تضره». وفي سنن البيهقي الكبرى 7 / 388 (15046) بسنده عن عون بن عبد الله بن عتبة حدثني أبي عن جدي وذكره.

11- صحيح ابن حبان1 /418 (189) ومسند أحمد4 /222 و388 و389 وسنن الدارمي2 /244 (2348) والتوحيد لابن خزيمة 122والمعجم الكبير7 /320 (7257) وسنن البيهقي الكبرى7 / 388 (15049).

الشواهد وحكم بضعفها أو اضطرابها[12]

فتحصل من النظر في أسانيد الخبر أن رواية هلال بن أبي ميمونة مرجوحة من حيث السند، خالفه فيها ابن جريج وسعيد بن زيد، ومع روايتهما من الشواهد الصحاح ما يؤكد ترجيح روايتهما، أما رواية عطاء فلا يشهد لها إلا أسانيد ضعيفة ومتون مضطربة.

ثانياً: الكلام على متن حديث الجارية بلفظ (أين الله)

هذا اللفظ على ظاهره فيه إشكالات:

الأول: أنه لم يصح عن النبي ﷺ في تلقين الإيمان طول أداء رسالته السؤال بأين أو أنه ذكر ما يوهم المكان ولا مرة واحدة في غير هذه القصة بل الثابت عنه تلقين كلمة الشهادة وبعثِ رسله بالدعوة إليها، ولم يُذكر أن أحداً من رسله دعا الناس إلى الإيمان بوجود الله في السماء ولا استكشف عن إيمان أحد بسؤاله «أين الله».

من ذلك ما أخرجه الإمام البخاري بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[13].

ومنها ما أخرجه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمسَ صلوات في كل يوم وليلة فإنْ هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»[14].

الثاني: أن المشركين كانوا يقرون بأن الله تعالى في السماء فلا يكون جواب الجارية كافياً في الدلالة على التوحيد، ويدل على ذلك حديث عمران بن حصين، أخرجه الترمذي

12- انظر العلو للعلي الغفار 120-124 بتحقيق حسن السقاف غفر الله له فقد أفدت منه في الكلام على سند الحديث. وانظر تنقيح الفهوم العالية للمحقق 5-24

13- صحيح البخاري 1 /17 (25)

14- المصدر نفسه 2 /505 (1331)

بسنده عن «عمران بن حصين قال قال النبي ﷺ لأبي يا حصين كم تعبد اليوم إلهاً؟ قال أبي: سبعة، ستةً في الأرض وواحداً في السماء. قال: فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك؟ قال الذي في السماء»(15). فلو قدرنا سائلاً يسأل حصيناً وهو على حالته هذه قبل دخول الإسلام فيقول: أين الله؟ لأجاب حصين: في السماء ولا يكفي هذا في الدلالة على التوحيد(16).

الثالث: أن روايات الحديث تنص على أن الجارية كانت خرساء لا تفصح وفيها أن السؤال والجواب كان بالإشارة(17) أما الألفاظ فهي حكاية من الرواة يقول الكوثري رحمه الله: «ففي لفظ له (فمد النبي ﷺ يده إليها وأشار إليها مستفهماً من في السماء)، فتكون المحادثة بالإشارة. على أن اللفظ يكون ضائعاً مع الخرساء الصماء فيكون اللفظ الذي أشار إليه الناظم -ابن القيم- لفظَ أحد الرواة على حسب فهمه لا لفظ الرسول ﷺ. ومثل هذا الحديث يصح الأخذ به فيما يتعلق بالعمل دون الاعتقاد، ولذا أخرجه مسلم في باب تحريم الكلام في الصلاة دون كتاب الإيمان حيث اشتمل على تشميت العاطس في الصلاة ومنع النبي ﷺ ذلك، ولم يخرجه البخاري في صحيحه وأخرج في جزء خلق الأفعال ما يتعلق بتشميت العاطس من هذا الحديث مقتصراً عليه دون ما يتعلق بكون الله في السماء بدون أي إشارة إلى أنه اختصر الحديث»(18).

ويقول الحجة الغزالي: «وأما حكمه ﷺ على بالإيمان للجارية لما أشارت إلى السماء فقد انكشف به أيضاً- يعني السر في رفع الأيدي إلى السماء- إذ ظهر أن لا سبيل للأخرس إلى تفهيم علو المرتبة إلا بالإشارة إلى جهة العلو وقد كان يُظن بها أنها من عبدة الأوثان ومَن يعتقد اللهَ في بيت الأصنام، فاستُنطقت عن معتقدها فعرَّفت بالإشارة إلى السماء أن معبودها ليس في بيوت الأصنام كما يعتقد هؤلاء»(19). فإن صح هذا الحديث فليس فيه دليل على شيء سوى أن العامي يعد معذوراً في اللفظ الموهم اعتداداً بأصل اعتقاده بالله سبحانه وإن أوهم بعض إيهام في وصفه تعالى(20). وأن الإشارة إلى السماء من مثل هذه الجارية يدل على إسلامها.

15- سنن الترمذي5 /519 (3483)

16- انظر: مناظرة بين محمد الزمزمي بن الصديق الغماري والألباني 26

17- انظر: ابن خزيمة في التوحيد 122-123

18- السيف الصقيل ص 107

19- الاقتصاد في الاعتقاد 33

20- انظر السيف الصقيل للعلامة الكوثري 107

الـرابع: ونقول في إجمال هذا الوجه من الإشكال: أن ظاهره معارِض بظواهرَ أكثر عدداً وأصح سنداً ذُكر فيها كونه على العرش وقِبَل وجهِ المصلي وكونُ بعض المخلوقات عن يمينه فإما أن يثبتوا جميع هذه الأخبار على ظواهرها وإما أن يختاروا إثباتَ أحدها وتأويلَ الباقي، وهو اختيارهم، لكن لا يقدرون معه على منع خصومهم من اختيار التأويل في الجميع.

ويحتاج هذا الإجمال إلى تفصيل نقول فيه: لو سلمنا أن صحة الإيمان تتوقف على معرفة الجواب عن سؤال السائل: «أين الله» فلنرجع إلى كتاب الله تبارك وتعالى وإلى جملة السنة المطهرة لنبحث فيها عن الجواب، فإن في الرد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه تحكيما في ما شجر في دلالة هذا الخبر. ولو رجعنا إلى كتاب الله تعالى ونحن نبحث عن جواب لهذا السؤال لوقفنا عند عدد من ظواهر الآيات التي لا تنزل في قوة دلالتها عن قوة الدلالة التي أفادها ظاهر الخبر. فما في الخبر إلا مكان أو ظرف وهو (السماء) وحرف دال بظاهره على الكون فيه وهو الحرف (في).

وتجد في الكتاب الكريم والسنة المطهرة ألفاظا يوهم ظاهرها التمكن في مكان فمن ذلك (عند، وعن يمين، ومن جانب، وفوق، وعلى، وعند، ومع) تجد كل ذلك مضافا إلى ظرف يغاير الظرف الذي ذكر في الخبر. تأمل ذلك في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ [مريم: 52]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: 30]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: 83-85]. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: 19]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99].

وإذا بحثنا في السنة المطهرة وجدنا ظواهر لا تنزل عن رتبة هذا الخبر في درجة ثبوته ورتبة دلالته. منها ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى بصاقا في جدار القبلة فحكه ثم أقبل على الناس فقال: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى»[21]. وأخرج الإمام

21- صحيح البخاري 1 /159 ح (398) وصحيح مسلم 1 /388 ح (547)

أحمـد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين»[22].

وتجـد فـيما استدلوا به إثبات كون الله تبارك وتعالى فوق العرش وأشهر ما ورد فـيه حديث سماكٍ بن حرب عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: «كنت في البطحاء في عصابة وفيهم رسول الله فمرت سحابة فنظر إلـيها وقـال مـا تسـمون هذه قالوا السحاب قال والمزن، قالوا والمزن، قال والعنان قالوا والعـنان، قـال هـل تدرون ما بُعدُ ما بين السماء والأرض؟ قالوا لا ندري. قال إن بُعد ما بيـنهما إمـا واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ثم السماء فوقها كذلك حتى عد سبع سمـوات ثـم فوق السماء السابعة بحرٌ بين أعلاه وأسفله مثل ما بين سماء إلى سماء ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء وفوق ظهورهم العـرش أسـفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ثم الله عز وجل فوق ذلك»[23]. قال ابـن عـبد الـبر: «لا أعلم في هذا الباب حديثا مرفوعاً إلا حديث عبدالله بن عميرة وهو حديث مشهور بهذا الإسناد رواه عن سماك جماعة»[24] على اختلاف في رفعه[25].

بـل أثـبت بعضـهم طـواف الله تعـالى في الأرض محـتجا بما أخرجه عبد الله بن أحمـد بسـنده عن لقيط بن عامر من حديث طويل في البعث والموقف، وفيه أن رسول الله ﷺ قـام في الناس خطيباً فقال: «ثم تبعث الصيحة فلَعَمْر إلهك ما تدعُ على ظهرها

22- مسند أحمد 2 /160. وأخرجه ابن حبان في صحيحه 10 /336، والبيهقي في سننه 10 /87.

23- أخـرجه الإمـام أحمد في المسند 1 /206 (1770) وهو في سنن أبي داود4 /231 (4723) (4724) وسـنن ابـن ماجه1 /69 (193). وسنن الترمذي 5 /424 (3320) وقال الترمذي: «هذا حـديث حسـن غـريب» والـرد على الجهمية للدارمي1 /50 (72) ونقض عثمان بن سعيد1 /473 والسنة لابن أبي عاصم 1 /253 (577) ومسند أبي يعلى12 /76 ومسند البزار4 /135 (1310) والتوحـيد لابـن خـزيمة (102) والتوحـيد لابـن مـندة1 /14و163 و3 /187 والمسـتدرك علـى الصـحيحين2 /316 (3137) و2 /410 (3428) واعـتقاد أهـل السنة للالكائي3 /389 (650) وكتاب العرش للذهبي 1 /55 (9) (10) والعلو للعلي الغفار1 /59.

24- التمهيد 7 /139.

25- وقـد أشـار إلى ذلـك الترمـذي في سـننه5 /424 «روى الولـيد بن أبي ثور عن سماك نحوه ورفعه وروى شـريك عـن سماك بعض هذا الحديث وأوقفه ولم يرفعه» وأعله بذلك الاختلاف ابن الجوزي في العلل المتناهية1 /24

من شيء إلا مات والملائكة الذين مع ربك عز وجل فأصبح ربك يطوف في الأرض وخلت عليه البلاد فأرسل ربك عز وجل السماء. قلت يا رسول الله فما يعمل بنا ربنا جل وعز إذا لقيناه؟ قال تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى عليه منكم خافية فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء فينضح قِبَلكم بها فلعمر إلهك ما يخطىء وجه أحدكم منها قطرة »[26].

قال ابن القيم رحمه الله: « هذا حديث كبير جليل تنادي جلالته وفخامته على أنه قد خرج من مشكاة النبوة ... وكذلك (فأصبح ربك يطوف في الأرض) هو من صفات فعله، كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158]، و(ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا) ... والكلام في الجميع صراط واحد مستقيم إثبات بلا تمثيل بلا تحريف ولا تعطيل »[27].

وبعد الرجوع إلى هذه النصوص نحتاج إلى منهج علمي نتحاكم إليه في فهمها ونحن نبحث عن جواب السائل: (أين الله). فإن كان التمسك بالظاهر مختارا فليس أحد هذه الظواهر بأولى من الآخر بنفسه في جواز التمسك به.

26- السنة 2 /485 (11120) وهو في مسند أحمد 4 /13 من زيادات عبد الله بن أحمد وأخرجه أبو داود مختصرا في آخر باب لغو اليمين من سننه 3 /226 (3266) مقتصرا فيه على موضع الشاهد وهو قوله: « لعمر إلهك ».وأخرجه مطولا ابن أبي عاصم في السنة1 /286 (636). وابن خزيمة في التوحيد 186-190مع مغايرة في بعض الألفاظ. والطبراني في المعجم الكبير 19 /211 (477) والدارقطني في الكتاب المنسوب إليه « رؤية الله » 1 /153مقتصراً فيه على موضع الشاهد في الرؤية. والحاكم في المستدرك 4 /605. وسنده ضعيف جداً، يرويه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهو صدوق، انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 1 /117عن عبد الرحمن بن المغيرة الحزامي، وهو صدوق أيضاً انظر ترجمته في تهذيب التهذيب 6 /276. يرويه عن عبد الرحمن بن عياش الأنصاري: ولا يعرف إلا بهذا الحديث، انظر ترجمته في التاريخ الكبير للبخاري 5 /335. وتقريب التهذيب 348. يرويه عن دلهم بن الأسود قال الذهبي في ميزان الاعتدال 3 /45: « عداده في التابعين لا يُعرف، سمع أباه » يرويه عن أبيه الأسود بن عبد الله بن حاجب وهو مثله لا يعرف إلا بهذا الحديث. قال الحافظ في تهذيب التهذيب 1 /341: « روى له أبو داود حديثاً واحداً وهو حديث أبى رزين العقيلي الذي يقول فيه: لعمر إلهك » يرويه عن عاصم بن لقيط بن عامر وهو لا يعرف أيضاً ذكره الحافظ في تهذيب التهذيب 5 /50 بحديثه وقال: « ورواه أبو القاسم الطبراني مطولاً وهو حديث غريب جداً ».

27- زاد المعاد 3 /677-682 وانظر شرح قصيدة ابن القيم لأحمد بن إبراهيم 2 /471 ومعارج القبول للحكمي 2 /766

ولا يقبل أن يدعي مدع أن ظاهر الاستواء على العرش يساوي الكون في السماء، والنـزول منها إلى السماء الدنيا، ومع ذلك يساوي الطواف في الأرض، وكون المقسطين عن يمينه، وهو مع ذلك في قبلة المصلي، وهو مع المؤمنين أينما كانوا. فلا يخفى تعارض هذه الظواهر على أحد. وما من أحد يكابر في التسليم بأن هذه النصوص لا تشترك ظواهرها في الإشارة إلى كون الباري في مكان واحد. ولذلك لم يستقم التمسك بجميع هذه الظواهر عند أحد من العقلاء. فكيف يستقيم التمسك بظواهر هذه النصوص جميعها من غير تأويل، مع أن ظاهر الكون في السماء ينافي ما يظهر من حصول النداء من جانب الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة. وينافي ما يظهر من كونه في قبلة المصلي. بل لا يخفى أن الكون في السماء لا يدل بظاهره على الكون فوق العرش، لأنه لا يخفى التباين بين مدلول الحرفين (على) و(في) ولا يخفى تغاير العرش والسماء.

ولما كان تعارض هذه الظواهر واضحا اتفق الجميع على استحالة الحمل على الظواهر جميعها. لكن المخالف اختار أحد الظواهر ليتمسك به ويعمل التأويل بعد ذلك في سائر الظواهر التي تعارض الظاهر المختار. ولا يستقيم هذا التصرف في منهج من يعد التأويل تعطيلا وإلحادا. ولا بد من دليل يستقل بإثبات جواز التمسك بالظاهر المختار مع دليل يستقل بجواز التعطيل والإلحاد في الظواهر التي اختاروا هجرها بالتأويل.

والمنهج العادل هو أن نجعل من تعارض هذه الظواهر شاهدا يدل على تنزه الباري سبحانه عن التمكن في مكان إذ لا يفهم قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، مع كونه أقرب إلينا من حبل الوريد إلا إذا كان وجوده متنزها عن الوجود المكاني ولوازمه. ومن حسنات هذا المنهج العادل أن نستقيم على فهم واحد غير مضطرب ولا منحاز في اختيار التأويل في موضع والتمسك بالظواهر في موضع. ولك أن تقول إن من حسناته أنا نبرأ به من التكلف والتحكم في التصرف في الظواهر بالتشهي من غير مسوغ ولا مرجح.

وبعد الكلام على سند الحديث ومتنه ونقد الاستدلال به أوجز نصوصا يتبين بها تعسف المتشبثين بظاهره. ثم أختم بنص يتبين به فهم أهل السنة لهذا الحديث. يقول عثمان الدارمي: « فقول رسول الله إنها مؤمنة دليل على أنها لو لم تؤمن بأن الله في السماء لم تكن مؤمنة وأنه لا يجوز في الرقبة المؤمنة إلا من يحد الله أنه في السماء كما قال الله ورسوله. وقد اتفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أن الله في السماء وحدوه

بذلك إلا المريسي الضال وأصحابه»[28].

ويقـول محمـد بـن عـبد الوهاب راداً على من نسب إلى الحنابلة نفي الأين: «وقوله ومـذهب أهـل السـنة إثبات من غير تعطيل ولا تجسيم ولا كيف ولا أين إلى آخره. وهذا من أبين الأدلة على أنه لم يفهم عقيدة الحنابلة ولم يميز بينها وبين عقيدة المبتدعة وذلك أن إنكار الأين من عقائد أهل الباطل وأهل السنة يثبتونه اتباعاً لرسول الله ﷺ كما في الصحيح أنـه قـال للجاريـة أين الله؟ فزعم هذا الرجل أن إثباتها مذهب المبتدعة وأن إنكارها مذهب أهـل السنة كما قيل وعكسه بعكسه»[29]، ويقول ابن عثيمين رحمه الله: «واستفهام النبي ﷺ بـ (أين الله) يدل على أن لله مكاناً، ولكن يجب أن نعلم أن الله لا تحيط به الأمكنة لأنه أكبر من كل شيء وأن ما فوق الكون عدم، ما ثَم إلا الله فهو فوق كل شيء»[30].

وأيـن هـذا الفهـم مـن فهـم أهل السنة الذي عبر عنه الحجة الغزالي فقال: «فإن قـيل: فـإن لم يكـن مخصوصـاً بجهة فوق فما بال الوجوه والأيدي ترفع إلى السماء في الأدعية شرعاً وطبعاً؟ وما باله ﷺ قال للجارية التي قصد إعتاقها فأراد أن يستيقن إيمانها أين الله؟ فأشارت إلى السماء فقال إنها مؤمنة؟

فالجواب عن الأول: أن هذا يضاهي قولَ القائل: إن لم يكن الله تعالى في الكعبة وهـو بيـته فما بالنا نحجه ونزوره؟ وما بالنا نستقبله في الصلاة؟ وإن لم يكن في الأرض فما بالنا نتذلل بوضع وجوهنا على الأرض في السجود؟ وهذا هذيان.

بـل يقال: قصد الشرع من تعبد الخلق بالكعبة في الصلاة ملازمةَ الثبوت في جهة واحـدة. فإن ذلك لا محالة أقرب إلى الخشوع وحضور القلب من التردد على الجهات. ثـم لمـا كانت الجهات متساوية من حيث إمكان الاستقبال خصص الله بقعة مخصوصة بالتشـريف والتعظـيم وشـرفها بالإضـافة إلى نفسه واستمال القلوب إليها بتشريفه ليثيب علـى اسـتقبالها. فكـذلك السماء قبلة الدعاء كما أن البيت قبلة الصلاة. والمعبود بالصلاة والمقصود بالدعاء منزه عن الحلول في البيت والسماء. ثم في الإشارة بالدعاء إلى السماء سـر لطـيف يعـز مـن ينتبه لأمثاله. وهو أن نجاة العبد وفوزه في الآخرة بأن يتواضع لله تعالى ويعتقد التعظيم لربه.

28- نقض عثمان بن سعيد 1 /226-229
29- مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب 1 /133
30- شرح العقيدة الواسطية 44.

والتواضـع والتعظـيم عمـل القلـب وآلته العقل، والجوارح إنما استعملت لتطهير القلـب وتـزكيته، فإن القلب خُلِق خِلْقةً يتأثر بالمواظبة على أعمال الجوارح كما خُلقت الجـوارح متأثرة بمعتقدات القلوب. ولما كان المقصود أن يتواضع في نفسه بعقله وقلبه بأن يعرف قدره ليعرف بخسة رتبته في الوجود لجلال الله تعالى وعلوه، وكان من أعظم الأدلـة علـى خسـته الموجـبة لتواضـعه أنه مخلوق من تراب كلف أن يضع على التراب الـذي هـو أذل الأشياء وجهه الذي هو أعز الأعضاء ليستشعر قلبه التواضعَ بفعل الجبهة في مماسـتها الأرض فيكون البدن متواضعاً في جسمه وشخصه وصورته بالوجه الممكن فـيه وهـو معانقـة التراب الوضيع الخسيس ويكون العقل متواضعاً لربه بما يليق به وهو معرفة الضعة وسقوط الرتبة وخسة المنزلة عند الالتفات إلى ما خلق منه.

فكـذلك التعظـيم لله تعالى وظيفة على القلب فيها نجاته. وذلك أيضاً ينبغي أن تشترك فيه الجوارح وبالقدر الذي يمكنه أن تحمل الجوارح. وتعظيم القلب بالإشارة إلى علـو الرتبة على طريق المعرفة والاعتقاد وتعظيم الجوارح بالإشارة إلى جهة العلو الذي هـو أعلـى الجهـات وأرفعهـا في الاعـتقادات، فـإن غايـة تعظيم الجارحة استعمالها في الجهـات. حتـى أن مـن المعـتاد المفهوم في المحاورات أن يفصح الإنسان عن علو رتبة غـيره وعظيم ولايته فيقول أمره في السماء السابعة. وهو إنما ينبه على علو الرتبة ولكن يسـتعير لـه علو المكان. وقد يشير برأسه إلى السماء في تعظيم من يريد تعظيمَ أمره أن أمـرَه في السـماء أي في العلو وتكون السماء عبارة عن العلو. فانظر كيف تلطف الشرع بقلـوب الخلـق وجوارحهم في سياقهم إلى تعظيم الله، وكيف جهل من قلت بصيرته ولم يلـتفت إلا إلى ظواهـر الجـوارح والأجسـام وغفـل عـن أسـرار القلـوب واستغنائها في التعظـيم عـن تقديـر الجهـات، وظـن أن الأصـل مـا يشار إليه بالجوارح، ولم يعرف أن المظـنة الأولى لتعظـيم القلب وأن تعظيمه باعتقاد علو الرتبة لا باعتقاد علو المكان وأن الجـوارح في ذلـك خـدم وأتباع يخدمون القلب على الموافقة في التعظيم بقدر الممكن فـيها. ولا يمكن في الجوارح إلا الإشارة إلى الجهات فهذا هو السر في رفع الوجوه إلى السماء عند قصد التعظيم»(31).

وآخـر دعـوانا أن الحمـد لله رب العـالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

31- الاقتصاد في الاعتقاد 31-33